

وراسة لمخطوطة:

"إتحاف أشرف الملة ببعض أخبار الرباط وسلا"

ك. فضيلة الأستاذ أيوب بولسعاد

المقدمة:

هذه دراسة استقرائية لرجز "إتحاف أشرف الملة بأخبار الرباط وسلا" وهو رجز تاريخي، حضاري، سلس، رائق، لازال بكراً، لم ينل العناية اللازمة به، رغم قيمته العلمية والتاريخية، وما حواه من مقاصد عالية غالية. فاستخرت الله في تحقيقه، وإخراجه من عالم المخطوط إلى عالم المطبوع، فارجو الله التوفيق والسداد، فاقول:

ترجمة المؤلف¹:

المؤرخ، العلامة الأديب، الكاتب الأريب، الباحثة المكثرمحمد بن محمد ابن علي الذكالي السلاوي، ولد بسلا سنة 1285هـ/1868م. نشأ ببلدته، وتعلم عن شيوخ سلا آنذ ومن أهمهم وأشهرهم:

- أحمد بن خالد الناصري صاحب كتاب "الاستقصا" الذي تخرج على يديه، وحبب إليه علم التاريخ.

- إبراهيم الجبري - عبد الله بن خضراء - أحمد بن موسى السلوي - أحمد الجبري.

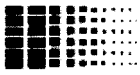
وفي فاس:

- محمد بن التهامي الوزاني - عبد المالك العلوي الضرير - أحمد بن محمد ابن الخياط الزكاري -

محمّد - فتحاً - القادري - عبد السلام الهواري - عبد الله الحسني.

مؤلفاته:

- "الإتحاف الوجيز" طبع في المكتبة الصباحية العامة بتحقيق بوشعرة.
- "إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا" خ وهو قيد التحقيق لصاحب هذه السطور يسر الله إتمامه بخير وعافية.
- "أدواح البستان في أخبار مدينة سلا ومن درج فيها من الأعيان" مفقود.
- "ضوء النبراس في محاسن مدينة فاس" خ.
- "أنساب العدوتين سلا والرباط" خ.
- "تخليد المآثر وتقبيد المفآخر بترجمة شهاب الدين أحمد ابن ناصر" شيخه صاحب الاستقصا خ.
- "الدرة اليتيمة في أخبار شالة الحديثة والقديمة" خ.
- "رسالة في أخبار حسّان الذي بالرباط" خ.
- "صريح الدلالة فيمن سكن دكّالة" خ.
- "رسالة في تاريخ المغرب القديم والحديث" خ.
- "ضوء النبراس لدولة بني وطّاس" خ.
- "السراج الوهاج والكوكب المنير من سنا صاحب التاج" خ.
- "السكك الإسلامية" طبع عن بلدية سلا.
- "الحسبة في الإسلام" خ.
- "بغية المستفيد في إعراب قام زيد" خ.
- "معارج الزلفى فيمن لقّيته من أهل الاصطفا" خ.
- "أحوال اليهود بالمغرب حديثاً وقديماً" خ.



وظائفه:

تقلب المصنف في عدة مناصب سامية وهي:

كان عدلا بمدينة سلا، كاتباً لباشا سلا، كاتباً بالبنك المخزني بالرباط، كاتباً بالقصر السلطاني، كاتباً بالصدارة العظمى، موظفاً بمندوبية العلوم و المعارف.

ثناء العلماء عليه:

قال عنه ابن سودة: «العلامة الكبير، والشيخ الشهير، الكاتب المقتدر، المؤرخ، صاحب التصانيف العديدة المفيدة...»².

قال القيطوني: «الفقيه، العلامة الكبير، المؤرخ الشهير، النقادة الخطير»³.

قال الجراي: «ولد في بيت ماجد، عرف بالمرؤة والخيارة والنزاهة...، كان المترجم من أكابر المؤرخين، فما من موضوع إلا وله فيه اليد الطولى»⁴.

ووصفه العلامة المؤرخ جعفر الناصري بقوله: «الشيخ الفقيه، مؤرخ سلا، والباحث في آثارها ومآثرها، وتراجم عمائها، ومشاهير أعيانها..»⁵.

وفاته:

توفي - رحمه الله تعالى - بسلا يوم الجمعة سادس جمادى الثانية عام 1364هـ/1944م.

النسخ الخطية:

لأرجوزة "إتحاف أشرف الملأ" نسخ خطية كثيرة:

- 3 نسخ في الخزانة الملكية وهي نسخ خزائنية، مزركشة، ومذهبة، ومتقنة، بخط المؤلف وتحمل الأرقام 227- 12109- 13874.

- 3 نسخ بالمكتبة الوطنية برقم 11- 383- 2931ك، بخط أحمد باليمنى الناصري.

- ولها أكثر من نسخة في الخزنة الصبيحية العامرة.

- ونسخة بالخزنة الناصرية.

- ونسخة بمؤسسة علال الفاسي.

موضوعها وسبب نظمها:

وها هو يبين ذلك بقوله:

وقد نظمتُ رجزاً مبتكراً	ملقصدٍ يفيدُ كلَّ من درّا
في جلّ أخبار الزباط وسلا	وحال من غبر فيها من ملا
من كل ذي علم وذي صلاح	وذي اشتها من ذوي النّجاح
سمّيته تحاشي اشرف الملّا	ببعض أخبار الزباط وسلا

وعدد أبياتها بالاستقراء والعدّ هو: 2886 بيتاً.

وعدد مقاصده التي فيها مواضيعها عشرة مقاصد ولاحقة.

افتتحها بإهداء إلى المولى عبد الحفيظ وفذلكة، ثم أتبعها بالمقاصد العشرة ثم ختمها بلاحقة ردّ فيها على ابن الخطيب في مفاضلته بين مالقة وسلا.

تفصيل ما أجمل أعلاه:

فذلكة:

ذكر فيها مقاصد هذه الأرجوزة فقال:

إن المقاصد التي تُسَطَّر	في ذي المرّجّز وعنها يُخبر
عشرة بحسب الموضوع	من المخصص وذي تفريح
فبعضها يرجع للمكان	والبعض للأحوال والسكان
فالبقرة الأولى وبعد المنعّة	والشنعة الكبرى ووصف الصنعة
ثم العمارة كذا الحضارة	ثم النضارة مع الإثارة



ثم المساكين وذكر السالكين	وليس ذا الترتيب بالمعنى
وربما اختلطت المقاصد	ولم يميز لاشتراك واحد
فقد يحال بعضها لبعض	بحيث يبلغ المرام المرضي
ويجعل الانسب للتقدم	ويتبع الاحق للتقدم

* مقصدنا الأول ذكر البقعة وماله ارتباط وجمه *

ذكر فيه موقع سلا الجغرافي، ومسافة المساحة، وأمور أخرى تتعلق بالسكك، والأسطول، والفلاحة، وتاريخ بناء العدوتين.

* المقصد الثاني أخو العمارة وما اقتضته القسمة المختارة *

ذكر حدود سلا بعدوتها، ومن بناها في المرة الثانية، ومن أنشأ الرباط، ومن ذكرها من الجغرافيين، وكيف توسع العمران فيها، والملوك الذين تعاقبوا على حكمها.

* المقصد الثالث فيما يُذكر من الحضارة وفيه عجز *

ذكر فيه أن سلا قديمة في الحضارة قبل فتح المغرب، كانت فيها القصور والمياكل المنقوشة بالرخام، والأكواح المذهبة، ولما جاء الإسلام نسخ العلم الجهل، وجاء الهدى بعد الضلال، فبنيت المساجد، والرباط، والصوامع المزخرفة، المخطوطة بالخشب، والرخام، والزليج العجائب وكلها تسحر الأبصار.

* المقصد الرابع في الصناعة والقول فيها يقتضي اشباع *

ذكر فيه أنواع الصنائع التي كانت فيها: من البناء والطرز، والقطن، والكتان، والأسوار، والأبراج، ومنار الجامع، وشالة، ودار الصنعة المرينية، والأمشاط، والحصير، والجلد المدبوغ، والفخار كلها متقنة، مع ثياب الصوف، والأكيسة والأغطية، كلها تحقق لسلا اكتفاء مع التصدير، مع وجود نقص الملفة، والحري، والخز، والذهب، والسكك تضرب، والمكحلات مع مكان للرماة، والمدافع والمهراس، ثم الملاحة البحرية، وعلمهم أحوال الرياح، وسائر الجهات، ثم صناعة الخط، والطباعة على الطين، والفلاحة أخص خصائص الصنائع إتقاناً، وصنع السفن أعظم الصنائع.

* المقصد الخامس فيما يُعْتَبَر مِنَ النُّصَارَةِ لَدَا مَنْ قَدْ عَبَّرَ *

ذكر فيه: حسن منظر وطبيعة سلا الساحرة، وموقعها المميز، ومكان بنائها الذي اختير بعناية فائقة، وخريطتها الرائقة، من جنان، ومياه، وظلال، وبساتين، ورياض، ودوام خصبها خصوصاً الولجة، ومن ذكرها بذلك من العلماء، وفضلها على كثير من مدن العالم.

* المقصد السادس فيما يُفْتَخَرُ بِهِ مِنَ الشُّعْبَةِ وَهُوَ مُخْتَصَرٌ *

ذكر فيه فخر سلا المشهور عبر الدهور، وقد كانت مكاناً للإقلاع والخطّ عبر العصور، من أيام الفنيقيين والرومان، وكان أهلها يخاطبون حكامهم، إذ كانت سلا تمتدّ روما بالحبوب. ثم ذكر مجيئ الإسلام ومن فتحها، ثم تعاقب الأمراء عليها من الأدارسة إلى العلويين. ثم ذكر السلع، والبضائع التي تجلب وتصدر منها وإليها.

* المقصد السابع ذكر المنفعة فاسمع هديت للصواب المثلث *

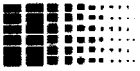
ذكر فيه أن سلا حصناً منيعاً، لهذا اختارها أكثر السلاطين والأمراء من ابتداء بَرَعُوطَةِ، مروراً بالمرابطين، ثم الموحدين، وصولاً إلى العياشي وجماده، ثم الدلائيين، ثم العلويين، وما أسسوا فيه من البنين، وأهم أعمالهم الحربيّة الجهاديّة ضد الهجمات الإسبانية والبرتغالية ثم الفرنسية.

* وثامين المقاصد المحررة وصف الأثارة وجلّ مأثرة *

ذكر فيه خصوصية أرض سلا من واد أم الزبيح إلى واد لكوس، وأن القمح، والحبوب، والزّرع يصدر من قديم العهد إلى عصره، ثم ذكر رمل بحر سلا، وأنه خصب جيد، واستدل بأقول الجغرافيين.

وذكر أهل العدوتين ومأهم فيه من الوفاق والخلاف، والاتفاق والافتراق فقال:

فهي لدا ذات اجتماع وافتراق	وعامروها في خلاف ووفاق
وكل قسم مستقر ومكتمل	والناس من هذا الذّاك تنتقل
ومن غدا بالجانب الغربي	يغبط من الجانب الشّرقي
والحكم الواقع بلا خلاف	فهم على خُلف وفي تصافي



* المقصد التاسع في المساكن ذات الشُّفوف والجمال البتني *

ذكر فيه مساكن سلا وقصورها البديعة، الجميلة المنظر، وأن حسننها مشهور، وما أنشأه أبو العباس ابن عشرة من قصره الشهير البديع بسلا، وأن الشعراء قصدته بالمدح لأخذ المنح، وأنزل فيه الملك الزناتي الصنهاجي ملك بجاية من بني حماد، فاستسوا دوراً لهم أمام المسجد الأعظم، لهذا يسمّى هذا الحيّ إلى الآن بزنانة.

ثم جاء على القصور والديار الأندلسية العريقة في سلا والرباط التي بناها الأمراء، ثم ذكر الرياضات، وزاوية لتسّاك وتاريخها، وما آلت إليه، وما حوته هذه البنايات من حياض، ومغاني، وجنان، ومُنَى.

* المقصد العاشر وهو أفند في ساكن قد ظمّنته البلد *

وهذا أطول المقاصد، ذكر فيه طبقات أصناف الناس الذين كانوا في العدوتين فقسم هذا المقصد إلى مراتب فقال،

فانظر لأولى الطبقات تستند حالا جليلا هو لبّ ما أفند

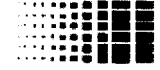
فقدّم الأولياء، ثم العلماء، ثم القضاة، ثم الملوك، ثم الأدباء.

ثم اختتم بأفلاك العلّى ذكرهم عبر طبقات بتاريخ الوفيات، وأرخ بحساب الجمل.

وذكر أوصاف الأديب، والعلوم التي يجب أن يحصلها حتى يسمّى أديباً فقال،

وإن تشا فطامة الاباب فاسمع الى طبقة الاداب

ان الاديب من تباد متقنا	لاثني عشر من العلوم علنا
وهي التي تعرف بالوسايل	وبمعارف اللسان الاكمل
وكان في سلا حديثا وقديم	ايمه بدوا كمالا للعلم
قد نظموا وحاضروا وتروا	وفي ميادين المعالي حضروا

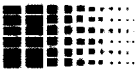


لاحقة:

اختتم بها نظمه، فخصصها للرد على الوزير لسان الدين ابن الخطيب وما ضمنه في كتابه "ريحانة الكتاب" مقالة فاضل فيها بين مالفقة وسلا، وأنه لم يحفظ خير سلا عندما كان مقيماً بها، وأن مقارنتها في حد ذاتها لا تصح لبعد المسافات فقال:

ان الوزير ابن الخطيب قد كتب	بما يسوء ارضنا وما اصاب
اودع في ريحانة الكتاب	مقالة تخل بالآداب
فاضل بينهما وبين مالفقه	من الجزيرة فايدا حمقه

وبه مسك ختم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه.



الهوامش

- 1- ترجمته في: ترجم لنفسه في وريقات ضمن مجموع (برقم 215) يوجد بمؤسسة علال الفاسي، "موسوعة أعلام المغرب" (3188/9)، "سل النصال" (134)، "دليل مؤرخ المغرب الأقصى" (13)، "معجم المطبوعات المغربية" (116)، "أعلام الفكر المعاصر" (177/2)، "التأليف ونهضته بالمغرب" (191)، "الأعلام" للزركلي (302/6)، "معجم المؤلفين" (511/3)، مقال نشر في "السعادة": (ع: 6470 س: 1945) بعنوان: "العلامة المؤرخ الفقيه السيد محمد بن علي الدكالي".
- 2- انظر "سل النصال" (134).
- 3- "معجم المطبوعات" (116).
- 4- "أعلام الفكر المعاصر" (177/2-178).
- 5- "سلا ورباط الفتاح وأسطولهما وفرصتهما الجهادية" (23 / 1).
- 6- انظر "دليل مؤرخ المغرب الأقصى" (1619).